# «ترجمات معاني القرآن الكريم» بين الترجمة والتفسير: قراءة في خلفيات المصطلح


## د. حسن حمزة(*)


نود أن نتوقف في هذا البحث أمام عبارة واحدة واردة في العنوان «ترجمات معاني القرآن الكريم»، لا لنخوض فيها من وجهة نظر دينية فقهية عقدية، ولا لنخوض في مسألة الإعجاز القرآني وموقف علماء المسلمين منه، وتعدُّد أقوالهم فيه - وإنْ كان لا بدَّ من الإشارة إلى قضية الإعجاز ولو كانت الإشارة عابرة- بل للنظر في هذه العبارة بمنظار الترجمة ومناهجها وشروطها، وبمنظار المصطلح وآليات عمله لمعرفة خلفيات استخدام هذا المصطلح أو ذاك، ومدى مناسبته. ولا نريد أن نخلط الأمرين فنطبقَ على واحدهما معايير الآخَر ومقاييسه؛ فهذا الأمرُ مدعاةٌ للزلل. وقديما فطنَ أبو القاسم الزجاجي في القرن الرابع للهجرة إلى خطورة الخلط بين العلوم، وتطبيق معايير أحدها على الآخر، فردَّ على الفلاسفة حدَّهم للاسم، مع أنه صحيحٌ على مذهبهم، كما يقول، ولكنه رأى أنه ليس صحيحاً على مذاهب النحويين، لأن «غرضَهُم غيرُ غرَضِنا، ومغزاهُم غيرُ مغزانا»(1).

* * *

سنتناول عبارة «ترجمات معاني القرآن الكريم» من زاوية الترجمة والمصطلح إذن دون غيرهما. وسنعرض من هذه الزاوية عددا من الأسئلة التي نرجو أنْ تتسع لها صدور السامعين، وأن تؤخَذَ بالرفق والمحبة والألفة التي تسود، أو ينبغي لها أن تسود، بين العلماء.

ليست هذه العبارةُ التي وردت في عنوان المؤتمر -إذ جاء فيه: «المؤتمر الدولي الأول حول ترجمات معاني القرآن الكريم(2): الضوابط والأسس»- من ابتداع الإخوة والزملاء الذين أشرفوا على تنظيم المؤتمر، والذين أوجه لهم التحية والشكر على ما بذلوه من جهد حقيقي في تنظيمه على الرغم من ضيق الوقت المتاح أمامهم، وإنما هي عبارة مألوفة شائعة في أيامنا.

قد يبدو العنوان بدهياً لا يحتاج إلى شرح أو تعليق، لأن الناس قد ألِفوا هذا النوع من التعبير الذي شاع على الألسنة، وفي الصحف، والإذاعة والتلفزة حتى يكاد يبدو من المسلمات.

---


(*) أستاذ في جامعة ليون 2 - فرنسا - مركز البحث في المصطلح والترجمة، مدير مكتب المعجمية والمصطلحية والقاموسية والترجمة العربية




يكفي أن يكتب المرء هذه العبارة على صفحة أحد محركات البحث ليخرج فيضٌ من الأخبار والتعليقات التي وردت فيها هذه العبارة بحذافيرها: «انطلاق مشروع ترجمة معاني القرآن الكريم في روسيا»، «العَزَب يحاضر حول ترجمة معاني القرآن الكريم بالجسرة»، «ترجمة معاني القرآن الكريم، لتلاوات أصحاب المعالي والفضيلة، أئمة المسجد الحرام خلال صلاة التراويح»، إلخ(3). بل قد نجد هذه العبارة نفسها بهذه الصيغة، أو بصيغة أخرى مشابهة لها في عناوين عددٍ من كتب ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية، وربما إلى غيرها من اللغات؛ فقد جاءت في ترجمة محمد حميد الله الذي كتب على الصفحة الخارجية للغلاف: «القرآن المجيد مع معانيه بالفرنسية»، وكرّر الأمر على الصفحة الداخلية منه:

«القرآن المجيد مع معانيه بالفرنسية. نقله وحشاه محمد حميد الله بمساعدة م. الليتورمي».

غير أن حميد الله أتْبَعَ هذه الصفحة العربية الداخلية بصفحة داخلية أخرى بالفرنسية اكتفى فيها بما يقابل لفظ «الترجمة» في الفرنسية، وأغفلَ النص على «ترجمة المعاني» بصريح العبارة، إذ كتب على الغلاف الفرنسي ما ترجمته إلى العربية: «القرآن المجيد، ترجمة كاملة وتعليقات بقلم محمد حميد الله، أستاذ بجامعة اسطنبول بمساعدة م الليتورمي»(4).

أما الترجمة الصادرة عن إدارات البحوث العلمية في السعودية، وهي ترجمة قامت بها لجنةٌ اعتمدت اعتماداً كبيراً على ترجمة محمد حميد الله، فجعلتها أساساً لعملها، ثم قامت بتعديل ما رأت ضرورةً في تعديله(5)، فتتحدث عن «ترجمة المعاني» في النصين العربي والفرنسي؛ فقد جاء على صفحة الغلاف الخارجي والداخلي من جهة اليمين: «القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية». وجاء على صفحة الغلاف الخارجي والداخلي من جهة اليسار بالفرنسية ما ترجمته: «القرآن الكريم وترجمة معاني آياته إلى اللغة الفرنسية». وفي نص العنوان الفرنسي في هذه الترجمة السعودية زيادةٌ لا تخلو من فائدة؛ فالعنوان الفرنسي يتحدث عن «ترجمة معاني آيات القرآن»، وليس عن ترجمة معاني القرآن. وكان لا بد من هذه الزيادة في الفرنسية؛ إذ لو لم يفعل ذلك، أي لو قيل بالفرنسية: «ترجمة معاني القرآن الكريم» لالتبس الأمرُ على القارئ الفرنسي، فظنَّ أنه لا يُقصَدُ ترجمة ما في النص القرآني من معانٍ، بل ترجمة ما يعنيه لفظ «القرآن» إلى اللغة الفرنسية. وربما يكون محمد حميد الله قد تفادى في عنوانه الفرنسي الحديث عن «ترجمة المعاني» لكي لا يقع في هذا المحظور، فآثَر السلامةَ، واكتفى باستخدام لفظ «ترجمة» دون إلحاقه بلفظ «معاني».

* * *

توقفنا أمام مصطلح «ترجمة المعاني» لأننا نعتقد أنه ليس مصطلحا محايداً، وإن كان كثيرون

قد تواضعوا عليه. وليس من نافلة القول أنْ يُنظر في هذا المصطلح، وفي الخلفيات التي تدعو إليه؛ فلمَ تحدث العنوان عن «ترجمة معاني» القرآن الكريم، ولم يتحدث عن «ترجمة» القرآن الكريم؟ وما المسائل التي يثيرها استخدام هذا المصطلح دون ذاك في مجال الترجمة ونظرياتها؟ وكيف يترجم مثلُ هذا المصطلح إلى اللغات الأخرى؟

قد يقال – والقول لا يخلو من وجاهة-: ما الذي يمكن أن يُعاب على قولنا إننا نترجم المعاني؟ أليست الترجمة في جوهرها نقلاً للمعاني؟

يثير هذا السؤال الوجيه عددا من المسائل الهامة التي نكتفي بالإشارة إلى عدد منها:

أما المسألة الأولى فتتعلق بما يراد بمصطلح «المعاني»؛ فهذا المصطلح من أعقد المصطلحات وأصعبها. وليس من السهل أن يُمسَك به، وتُحدَّد أطرافُه، وتُضبَط حدودُه على الرغم مما تُغري به بساطته الظاهرة. ولا بدَّ في استخدامه من التمييز بين ثلاثة استعمالات مختلفة على الأقل:

أولها أنه قد يُستخدَمُ ويرادُ منه الدلالةُ المعجمية للفظ، أي مجموع القيم المحتملة التي يمكن للفظ أن يأخذها في الاستعمال، ولا يتحدد واحدٌ منها إلا في سياق محدد؛ فلفظ «الحِمارة» على سبيل المثال، يترجح بين عدد من الدلالات المحتملة بحسب الاستعمال: فقد يُعنى به أنثى الحِمار، أي البهيمة المعروفة، وقد يُعنى به المرأة البليدة الغبية الغليظة الفهم على سبيل المجاز، وقد يُعنى به الخشبةُ المثلثة القوائم التي يُعلَّق عليها الإبريق وغيره، وقد يُعنى به غير هذه وتلك من الدلالات[6]. ولفظُ «الساعة» دالٌّ على عددٍ من القِيَم المحتمَلَة، منها في أيامنا الجهاز الذي يدل على الوقت، ومنها أن الساعة: «جزء من أجزاء الجديدَين، والوقت الحاضر [...]، والقيامة أو الوقت الذي تقومُ فيه القيامة، والهالكون»، كما في القاموس المحيط للفيروزابادي[7]، إلخ.

وثانيها الدلالة المخصوصة التي تتحصل للفظ في سياقٍ معين يستبعد غيرها من الدلالات، كأنْ يأتيَ لفظُ «الحِمارة» مثلاً يرادُ به البهيمة دون غيرها من الدلالات المحتمَلة في مثل قولك: «ذهبَ إلى سوق الدواب فاشترى حمارة حمَلَ عليها أمتعته». ويُسهِم هذا التخصيص في تحديد معنى القول؛ فحين يُسألُ شخصٌ: «هل تحمل ساعة؟» يتحدد معنى القول؛ إذ يرتبطُ السؤالُ بالجهاز الذي يدل على الوقت، والذي قد يكون في يد المخاطَب، أو في جيبه، أو في حقيبته.

وثالثها مقصد القول، أي المعنى الذي يحصله المخاطَب من مجمل الظروف التي تحيط بالقول، أي من المقال ومن المقام؛ فلا يرادُ منه مواقع الألفاظ وما يأتي قبلها وبعدها في الخطاب فحسب، بل يرادُ منه أيضاً معرفة ظروف القول وملابساته، فيعرف مَن قال؟ ولمن قال؟ ولماذا قال؟ وأين قال؟ ومتى قال؟ وكيف قال؟ فمجملُ هذه العناصر هو الذي يسمح



بتحديد مقصد القول الذي يبتغيه المترجم. وقد يطابقُ مقصدُ القول معناه الظاهر من خلال سياق العبارة، وقد لا يطابقه. ولهذا تفضِّلُ النظرية التأويلية في الترجمة أن تتحدث عن مقصد القول، لا عن معناه الذي قد يكون مدعاة للالتباس؛ إذ ليس مقصدُ القول واحداً في سؤال السائل: «هل تحمل ساعة؟»، أو «هل عندك ساعة؟»، أو «هل معك ساعة؟»؛ فحين يسأل رجلُ الشرطة مسافراً في المطار يمر في باب المراقبة فيرن جرس الإنذار: «هل عندك ساعة؟» أو هل تحمل ساعة؟»، أو هل معك ساعة؟» يطابق المقصدُ المعنى الذي رأيناه عن الجهاز الدال على الوقت؛ لأن وجود هذا الجهاز المعدني قد يكون سبباً في رنين جرس الانذار. أما حين يسأل رجلاً ماراً في الطريق: «هل تحمل ساعة؟»؟ أو «هل عندك ساعة؟» أو «هل معك ساعة؟» فلا يطابق المقصدُ المعنى السابق، لأن السؤال ليس عن وجود الجهاز، وإنما هو سؤال عن التوقيت. ويمكن تدبُّرُ الفرقِ بين الحالتين بالنظر إلى الجواب؛ فهذا السؤال الواحد عن الساعة يستدعي جوابَين مختلفَين تمام الاختلاف. أما الجواب عن سؤال الشرطي في الحالة الأولى فقد يكون بالإيجاب، فينزع الرجل المسؤول ساعته من يده، أو يُخرجها من ثوبه ويضعها على البساط. وأما الجواب عن سؤال السائل عن الساعة في الطريق فلا يكون كذلك. وإنما يكون بتحديد الوقت، فيقول: «الساعةُ كذا وكذا»، لأن مقصد السائل: «كم الساعة»؟

قد يخطر في البال أنَّ مقصدَ القول هو النيةُ القائل، وأن المطلوب ترجمةُ النوايا. وليس الأمرُ كذلك؛ فقد يطابقُ مقصدُ القول نيةَ القائل، وقد لا يطابقها. فقد يكون السائلُ في الطريق بحاجة إلى معرفة الوقت، فيسأل: «كم الساعة؟» فيكون مقصدُ القول مطابقاً لنيَّته، وقد يكون السائلُ لصّاً يتربَّص بالمارَّة، فيرى رجلا يتوسَّمُ فيه مظاهر الغنى، ويمَنّي النفسَ بساعةٍ غاليةِ الثمن، فيسأله عن الساعة لانتشالها. لكن المترجم لا يهتم بترجمة هذه النوايا، ولو كان في المقام ما يدل عليها، بل يترجم مقصد القول الذي تتبيَّنُه الجماعة اللغويةُ في مثل هذه المناسبة، وهو السؤال عن التوقيت دون غيره[8]. وغني عن القول أن المترجم لا ينقل دلالات الألفاظ، ومعاني العبارات، وإن كان لا بد له من معرفة هذه الدلالات وتلك المعاني، وإنما ينقلُ مقاصدَ القول وأغراض الخطاب التي يحصِّلُها من معرفته بدلالات الألفاظ، ومعاني العبارات، وسياقات المقال والأحوال، أي من الخطاب ومن مختلف الظروف التي تسهم في إنجاز الخطاب.

- أما المسألة الثانية التي يثيرها السؤال عن «ترجمة معاني القرآن الكريم» فتتعلَّق بما لا يُعرَف معناه. ولا نريد بهذه المسألة ما قد يُفسَّر على وجوه كثيرة، فلا يُعرفُ معناه على وجه اليقين فحسب -فكل خطابٍ يحتملُ وجوهاً من التأويل يسعى المترجمُ إلى نقل ما يعتقد أنه مقصد القول- بل نعني أيضاً، وقبل ذلك، المواضِعَ التي يُجمِعُ المترجمون والشُّرَّاحُ والمفسرون على أنهم لا يعرفون معانيها. من ذلك مثلاً الحروفُ التي في أوائل بعض السور، وفيها ما هو

آيةٌ أو هو جزءٌ من آية. ومنها ما هو مبني على حرف واحد، ومنها ما هو مبني على حرفين أو على ثلاثة أحرف، أو على أربعة أحرف، أو على خمسة أحرف. مثال الأول: «ن»، ومثال الثاني: «طه» و«يس»، ومثال الثالث: «ألم»، ومثال الرابع «ألمر»، ومثال الخامس: «كهيعص». فإن نظرت في كتب التفسير ككتاب الكشاف للزمخشري، أو الجامع لأحكام القرآن للقرطبي[9]، أو غيرهما من كتب التفسير، وجدتَ أنهم يقولون عنها إنها حروف مقطَّعة لا يعرف المفسرون المراد منها. ولكنك، مع ذلك، تجدها مترجمة في الكتب التي جاء في عناوينها إنها «ترجمة معاني» القرآن الكريم. ويجعل المترجمون بإزائها في اللغة الفرنسية: (n) أو (noun) في مقابل (ن)، و(t. h.)، أو (ta. ha)، أو ('ta'. ha)، أو (taha)، أو غير ذلك في مقابل (طه)[10].

- وأما المسألة الثالثة فهي المقابلة الضمنية التي يقيمها أصحاب هذا المصطلح بين ترجمة القرآن الكريم وترجمة غيره من النصوص؛ فهم يتحدثون عن ترجمة «معاني» القرآن الكريم، ولكنهم لا يتحدثون عن ترجمة «المعاني» في النصوص الأخرى مهما كان نوع هذه النصوص، فلا يقولون مثلا: ترجمة معاني كتاب فلان، ولا ترجمة معاني قصيدة فلان، ولا ترجمة معاني الإعلان الفلاني، ولا غير ذلك. ويثير غياب الحديث عن «المعاني» في ترجمة الكتاب والقصيدة والإعلان إشكالا نظرياً كبيراً، لأنه يعني ضمنا أن ما يُترجَم ليس معاني الكتاب والقصيدة والإعلان. فما الذي يُترجَم إذن حين لا يكون للنص علاقةٌ بالدين ولا بالقداسة؟

تنهال على العالم العربي في كل يوم آلافُ الأخبار والبرقيات والتحقيقات التي تبثها وكالاتُ الأنباء الأجنبية بالانكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات، فتترجَمُ إلى العربية، وتُنشرُ على صفحات الجرائد، وتُقرأ في نشرات الإذاعة والتلفزة. ماذا يترجمُ المترجمون من هذه البرقيات، والتحقيقات إلى العربية؟ أينقلون ألفاظها أم ينقلون معانيها؟ إنْ قيل إنَّ مضمون المعاني التي فيها هو الذي يُنقَل إلى العربية- ومن الصعب أنْ يقال غيرُ ذلك- جاز السؤال: لِمَ تقولون: ترجَمَ فلانٌ الخبرَ والتعليقَ والتحقيقَ والكتابَ ولا تقولون: ترجمَ فلانٌ معاني الخبرِ والتعليق والتحقيق والكتاب مع أنكم تعلمون علمَ اليقين أن نقلَ المعاني هو المقصود في كلامهم؟

* * *

إن النظر المدقق في ترجمات الذين يقولون إنهم يترجمون معاني القرآن الكريم تبيِّنُ أنهم، في حقيقة الأمر، أكثرُ المترجمين بُعداً عن ترجمة المعاني؛ ذلك أنهم لا يجعلون قِبْلتَهم مقاصدَ القول، وكيف تُنقَلُ هذه المقاصدُ إلى اللغة المنقول إليها على أصولهم في مخاطباتهم، بل يصرفون جُلَّ اهتمامهم إلى دلالات الألفاظ ليستبدلوا لفظاً من هذه اللغة بلفظٍ من تلك يبدو لهم أنه أقربُ الألفاظ دلالةً إليه[11]، فلا يعطي هذا ترجمةً جيدة. وقد أشار بعضُ مَن سبقنا



إلى ما في هذه الترجمات من ركاكة وبُعدٍ عن مقتضى الكلام في اللغات التي يترجمون إليها، حتى إن أهل هذه اللغات يكادون لا يفهمون كثيراً مما يُترجَمُ لهم. وما هذا الواقع إلا لاحتفال المترجمين بدلالات الألفاظ وإن قالوا إنهم يترجمون المعاني. وهذا الاحتفال بدلالات الألفاظ أمرٌ شائعٌ جداً في ترجمات العالَم العربي، حتى في شؤون الحياة اليومية العامة. في هذا الفندق الذي تُعقدُ فيه الندوة تُعلَّق على كل باب من أبواب الغرف، كما تُعلَّق في الفنادق العربية الأخرى، لافتة كُتِبَ على وجهها الأول رجاءٌ بعدم الإزعاج، وعلى وجهها الآخَر رجاءٌ بـ «تنظيف الغرفة»، أو بـ «ترتيب الغرفة». ولا مشاحة في هذا الاصطلاح، ولا منازعةَ في ما اتفقت الجماعةُ عليه؛ فالمسألة مواضعةٌ. ويعرف النزلاءُ، كما يعرف العاملون في الفندق، أنَّ لفظ «التنظيف» لا يعني تنظيف الغرفة فقط، وأن «ترتيب الغرفة» لا يعني ترتيبها فحسب. وإنما يعني هذا اللفظُ، كما يعني ذاك، تنظيفها وترتيبها، وتجهيزها وإصلاحَ ما يحتاج إلى إصلاح فيها؛ فهذان اللفظان اللذان تختلف دلالاتهما في العربية لفظان مترادفان في هذا الموضع، وهو ترادف مرجعي لأنهما يُحيلان على المرجع نفسه تماما، وهو التنظيف، والترتيب، والتجهيز، وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح مما هو معروف مشهور في الخدمات الفندقية. أما الفرنسيون فلا يستخدمون في مثل هذا المقام لا ما يقابل التنظيف، ولا ما يقابل الترتيب، وعندهم بالطبع ألفاظٌ كثيرة يمكن أن تقابلَ هذين اللفظين العربيين[12]، وإنما يستخدمون فعلاً عاماً ترجمته الحرفية: «عمل الغرفة»[13]؛ فعلى المترجم إن شاء أن يتحدث إلى الفرنسيين بلغتهم أن يستخدم هذا الفعل، فعل العمل، دون غيره من الأفعال، في ترجمة «التنظيف» و«الترتيب» في العربية حين يتعلق الأمر بترجمة اللافتات التي تعلَّق على أبواب الغرف في الفنادق. أما في غير هذا الموضع، فذلك شأن آخَر. كما أن على المترجم من الفرنسية إلى العربية إنْ شاء أن يتحدث إلى العرب بلغتهم أن يستخدم أفعال «الترتيب» و«التنظيف» حين يتعلق الأمر بترجمة اللافتات التي تُعلَّق على أبواب الغرف في الفنادق. أما في غير هذا الموضع فذلك شأن آخَر. وليس من سداد المنهج أنْ يتخلى عن أفعال «التنظيف» و«الترتيب» التي يستخدمها العربُ ليختار لفظاً عربياً تكون دلالتُه أقرب الدلالات إلى الفعل الفرنسي، فيقول: «عمل الغرفة»، وإنْ كانت دلالةُ كلٍّ واحدٍ من هذين الفعلين أقلَّ شمولاً من دلالة الفعل الفرنسي «عمل» الذي يترجمونه إلى العربية.

قد يكون أصحاب ترجمات المعاني أكثرَ الناس بُعداً عنها، وقد يكونون أبعدَ الناس عن الأمانة في نقل المقاصد، لأنهم أكثرُ الناس احتفالاً بدلالات الألفاظ، وتمسكاً بالمقابلة بين هذه الدلالات. على أن ترجمة دلالات الألفاظ من المحال على المستوى النظري، لأنه يكاد لا يوجدُ تطابقٌ بين ألفاظ لغتين من اللغات كما رأينا في دلالات ألفاظ «العمل» و«التنظيف» و«الترتيب». وإنما يكون التعادلُ والتكافؤُ والمساواة في الخطاب بين مقاصد القول في هذه

اللغة وتلك، لا بين دلالات ألفاظ هذه وتلك. وكنا فصَّلنا القول في هذه المسألة في ندوة نظَّمها المجلس القومي في القاهرة عن الترجمة وإشكالياتها من خلال مثال بسيط جعلناه محور اهتمامنا في البحث. وهذا المثال هو عنوان كتاب رأيناه معروضاً في إحدى المكتبات: «كيفية اختيار الزوجة». وقد أقمنا الدليل في هذا البحث على أنه ليس في الفرنسية على كثرة مفرداتها، وغناها، واتساع رصيدها المعجمي لفظٌ واحدٌ مكافئ لواحد من هذه الألفاظ العربية الثلاثة؛ فليس فيها ما يكافئ «الاختيار» الذي يأتي من «الخير» على وزن «الافتعال» بزيادة التاء الدالة على انعكاس الفعل على صاحبه، كما تدل التاء في «غَسَلَ» و«اغتسَلَ». فالاختيار في العربية أن تعمل على أن تأخذ ما يكون فيه الخير لك. وليس في الفرنسية ما يعادل «الزوجة»، لأن «الزوج» في العربية مبني على مقابلة «الفرد». وليس في الفرنسية ما يعادل «الكيفية» التي هي مصدرٌ صناعي مبني على اسم الاستفهام «كيف». ليس في الفرنسية ألفاظٌ تساوي هذه الألفاظ العربية وتكافئها، وإنْ كان فيها ألفاظٌ كثيرةٌ مترادفةٌ يمكن أن تقابل كلَّ واحد من هذه الألفاظ العربية. وليس هذا الأمرُ لأن العربية لغةٌ غنية -وهي حقاً غنيةٌ- ولأن الفرنسية لغةٌ فقيرة؛ فالفرنسية لغةٌ غنيةٌ أيضاً. ولو قمتَ بالتجربة في الاتجاه المعاكس بترجمة الألفاظ من الفرنسية إلى العربية لوصلت إلى النتيجة نفسِها، ووجدتَ العربية عاجزةً عن إيجاد ألفاظٍ تساوي الألفاظ الفرنسية وتكافئها؛ فالمسألة مسألةٌ نظريةٌ عامةٌ شاملةٌ لا تتوقف عند لغة دون لغة مهما كانت درجةُ اتساعها أو فقرها[14].

لا يُعترَضُ على هذا الرأي بالقول إن اللغات تحيل على أشياء العالَم الخارجي. وقد تكون هذه الأشياء متشابهة أو واحدة، فتكون الألفاظ الدالةُ عليها متساوية متكافئة بين اللغات. وهذا ما كانت تقول به الفلسفة القديمة التي تعتبر اللغة مجرد أداة للتعبير عن أشياء موجودة قبلها، مستقلة عنها؛ فقد أثبتت اللسانيات الحديثة أن اللغات في تعبيرها عن العالَم الخارجي لا تقسم هذا العالَم بنفس الطريقة، ولا تنظر إلى الموجودات التي فيه نظرة واحدة. وقد فصَّلنا هذه المسألة في بحث لنا نُشر منذ سنوات، ومثَّلنا له بالقمر الذي هو واحد لجميع البشر، ولكنه مع ذلك ليس واحداً في العربية والفرنسية، وإنما تنظر إليه كل لغة منهما على طريقتها، فيكون مَن يُشبه «القمر» آيةً في الجمال عند العرب، ومثالاً للبلادة عند الفرنسيين[15]. حين نتحدث عن القمر الذي يختلف بين العرب والفرنسيين فإنما نتحدث عن القمر عند أبناء الجماعة اللغوية في هاتين اللغتين. أما القمر الذي في الكون فواحد، وكذلك القمر الذي يكون مصطلَحاً من مصطلحات العلماء؛ فقد يكون واحداً، لأنه لا يُنظر فيه إلى استعمالاته اللغوية، بل إلى المفهوم الواحد الذي تواضع عليه أصحاب العِلم في تعريفهم الدقيق له. وعلى هذا يمكن للمصطلح أن يكون واحداً، فيتساوى اللفظُ في هذه اللغة وتلك. أما في ما يُسمى بألفاظ اللغة



العامة المشتركة فلا تكون المقابلة بين الألفاظ دليلاً على مساواتها وتكافئها.

* * *

جاء في مقدمة الترجمة الصادرة عن إدارة البحوث العلمية في السعودية: «ولا بد من **التسليم أولا** أن القرآن العظيم لا يمكن أن **تُترجمَ جميع معانيه** لأية لغة، ولا يمكن أن تكون الترجمةُ قرآناً باللغة الأجنبية، لأن القرآن مُعجِزٌ **بلفظه ومعناه**».

قلنا إننا لن نعالج المسألة المطروحة إلا من وجهة نظر الترجمة والمصطلح. ولا نريد بالتالي أن نخوض في مسألة الإعجاز القرآني، واختلاف العلماء المسلمين في تعليل وجه إعجازه: أهو معجز بذاته، كما يقول كثيرٌ من علماء المسلمين، أم هو معجز بسبب خارج عنه، كما قال شيخ المعتزلة النظَّام وعددٌ من علماء المسلمين الذين قالوا بـ «الصَّرْفَة»[16]، يريدون بها «أنَّ الله صرَفَ العرب عن معارضته، وسلَبَ عقولَهم، وكان مقدوراً لهم، لكن عاقَهم أمرٌ خارجي فصار كسائر المعجزات»[17]. وحجتهُم أنَّ القرآنَ الكريمَ جاء على مقتضى كلام العرب في نحوه وصرفه وأصواته ومعجمه، وكان في العرب مَن هم أصحاب بلاغة واقتدار، فكيف عجزوا عن الإتيان بمثله إن لم يكن هناك ما يصرفهم عن ذلك؟

يشير النص الوارد في مقدمة الترجمة السعودية إلى العلاقة الوثيقة بين الإعجاز و«ترجمة المعاني»؛ فلئن كان غير ممكن كتابةُ نص شبيه بالنص القرآني في لغته الأصلية فلن يكون ممكناً كتابة نص شبيه به بلغة أخرى، ولن يكون ممكناً إذن أن يُترجَم هذا النص. وكان يُفترَضُ استناداً إلى هذا التقدير أن تُستبعَد عمليةُ الترجمة من أساسها؛ إذ ما معنى أن يُقال إنه «لا يمكن أن تترجم جميعُ معانيه»، ثم تصدر ترجمة يقال عنها: «مع ترجمة معانيه»؟ وحين يقال عنه إنه «معجزٌ بلفظه ومعناه»، فما معنى أن تصدر ترجمة معانيه، ولا تصدر ترجمة ألفاظه؟ إن النص الذي نقلناه من مقدمة الترجمة يُفترَض فيه أن يجعل ترجمة المعنى متعذرة كترجمة اللفظ؛ فهذا مُعجِزٌ وذاك مُعجز. والمقدمة تصرِّح بأنه لا يمكن أن تترجم جميع معانيه. ويعني هذا أن «ترجمة **معاني** القرآن الكريم» لم تعد عبارة صالحة، وصار الأقربَ إلى الصواب أن يُتحدَّثَ عن «تفسير القرآن»، لا عن «ترجمته»، ولا عن «ترجمة معانيه»، كما يدل على ذلك الخبرُ الذي نقله الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري؛ فقد قال عنه إنه كان يُفسرُ القرآن لتلاميذه بالفارسية والعربية.

بيد أن مصطلح «التفسير» أيضاً لا يناسب في هذا المقام للحلول محل مصطلح «الترجمة» لثلاثة أسباب على الأقل:

أولُها أن الترجمة تكون من لغة إلى لغة. أما التفسير فقد غلبَ عليه أن يكون في اللغة

نفسـها، وهـو مصطلـح مسـتقر منـذ زمـان طويـل، فلـم يعُـد يسـوغ اسـتخدامُه فـي النقـل مـن لغـة إلـى لغـة.

وثانيهـا أن الترجمـةَ تَجْهَـدُ فـي أنْ تُقـدِّمَ النـص دون أنْ تتصـرَّفَ فيـه. أمـا التفسـيرُ ففيـه شـروح قـد تطـولُ وقـد تقصُـر، مـا يفتـحُ البـاب أمـام نصـوصٍ مختلفـة باختـلاف المفسِّـرين.

وثالثُهـا أنَّ الترجمـة تعطـي النـص نفسَـه منسـوباً إلـى صاحبـه، ولكـنْ فـي لغـة ثانيـة. أمـا التفسـيرُ فيُعطـي نصـاً آخَـر منسـوباً إلـى مَـن فسَّـرَه، لا إلـى مَـن وضعَـه فـي الأصـل.

* * *

جـاء مصطلـح «ترجمـة المعانـي» عنـد القائليـن بـه فـراراً مـن مصطلحَيـن غيـر مناسـبين: «الترجمـة»، و«التفسـير». ولكـن المصطلـح البديـل غيـرُ مناسـبٍ أيضـاً. ومـن الطريـف أنـه لا يُترجـمُ إلـى الفرنسـية؛ فـإن أراد أصحابُـه أنْ يترجمـوه إليهـا أسـقطوا منـه مـا أضافـوه، فقالـوا فـي العربيـة: «ترجمـة معانـي القـرآن المجيـد»، وقالـوا فـي الفرنسـية: «ترجمـة القـرآن المجيـد»[18] كمـا فعـل محمـد حميـد اللـه، أو أضافـوا إلـى العنـوان العربـي مـا ليـس فيـه، فقالـوا: «ترجمـة معانـي آيـات القـرآن الكريـم»[19] كمـا فعلـت الترجمـة السـعودية.

* * *

لا تسـعى الترجمـة إلـى نقـل الألفـاظ، ولا إلـى نقـل دلالاتهـا. ولا يكفـي فيهـا ترجمـةُ المعانـي، ولا التعبيـرُ عـن مقاصـد القـول؛ فهـي تسـعى بعـد التعبيـر عـن مقاصـد القـول إلـى أنْ تُحْـدِثَ فـي اللغـة المنقـول إليهـا نفـسَ الأثـرِ الـذي يُحْدِثُـه الأصـل؛ فـلا بـد لهـا إذن مـن أنْ تأخـذَ فـي حسـابها أفانيـن القـول، والمسـتوى اللغـوي، والإيحـاء حيـن يـراد الإيحـاء، والتصريـح حيـن يـراد التصريـح، والرمـز حيـن يـراد الرمـز، وغيـر هـذه وتلـك مـن العناصـر التـي إذا اجتمعـت وتكثَّفَـت فـي نـص مـن النصـوص تعـذَّر أو صـار كالمتعـذِّرِ إيجـادُ المُكافِـئِ لـه فـي اللغـة الأخـرى. ولهـذا قـال الجاحـظ عـن الشـعر إنـه «لا يُسـتطاعُ أنْ يُترجـم، ولا يجـوز عليـه النقـل»[20].

قيـل فـي الشـعر إنـه لا يُسـتطاعُ أن يُترجَـم، ولا يجـوز عليـه النقـل. ويمكـن أن يقـالَ مثـلُ هـذا فـي كثيـرٍ مـن الأنـواع كالأحاجـي، والألغـاز، وبعـض نصـوص الإعـلان، وكثيـرٍ ممـا يعتمـد علـى التلاعـب بالألفـاظ. ويمكـنُ القـولُ إنَّ التطابـقَ المطلَـقَ متعـذر، وإنـه لا يمكـن أن يكـون نـصٌّ مسـاوياً للآخَـر مـن جميـع وجوهـه، ولـو فُعِـل ذلـك لبطلـت الترجمـة فـي أصـل وضعهـا، ولـم يكـن ثمـة حاجـةٌ للحديـث عنهـا. ولئـن قيـلَ عـن الشـعر وغيـره إنـه لا يُترجَـم، أفـلا يقـال عـن القـرآن الكريـم مثـل هـذا؟

لا تنطلـق الترجمـةُ مـن هـذا المتعـذِّر، ولا تسـعى إلـى المطابَقـة التامـة لأن النـص لا يُطابـقُ إلا



نفسَـه؛ فـلا يكـون فـي لغـة أخـرى، ولا يكـون فـي اللغـة نفسِـها. وإنمـا الترجمـةُ سـعيٌ إلـى الاقتـراب مـن الأصـل، فـي بنائـه ومقصـده وأثـره، وفـي حقيقتـه ومجـازه، وفـي صـوره وأخيلتـه اعتمـاداً علـى المشـترَكات بيـن البشـر، وعلـى المشـترَكات بيـن اللغـات. وفـي هـذه المشـترَكات مـا يتجـاوز الحديـث عـن «المعانـي».

كتـب جـاك بيـرك -وكان يعـرف العربيـة معرفـة جيـدة- علـى صفحـة غـلاف ترجمتـه الفرنسـية للقـرآن الكريـم العنـوان التالـي: «القـرآن، محاولـةُ ترجمـة». وهـو لـم يكتـب هـذا لسـبب فقهـي عقـدي، ولا لاعتقـاده بالإعجـاز القرآنـي، ولا ليعتصِـم بــ «ترجمـة المعانـي»، بـل لأن السـعي إلـى الإحاطـة بجميـع الجوانـب فـي نـص كالنـص القرآنـي لا يكـون إلا محاولـة.

## الحواشي

(1) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق: الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط 3، 1393هـ/1979م، ص 48.

(2) تسويد الحرف في هذا الموضع، وفي جميع المواضع الأخرى، منّا، وليس في الأصل.

(3) أنظر هذه العبارة على المواقع التالية وعلى غيرها مما تصفحناه في 2015/7/5: http: //www. elfagr. org; http: //alarab. qa. story; http: //www. bab. com

(4) « Le Saint Coran. Traduction Intégrale et Notes, de Muhammad Hamidullah, professeur à l'université d'Istanbul avec la collaboration de M. Léturmy ».
« Le Saint Coran et la traduction en langue française du sens de ses versets ».

(5) «انتخاب أحسن التراجم الموجودة لتكون منطلَقاً للعمل [... ] وقد تم بموجب ذلك اختيار ترجمة الأستاذ الدكتور محمد حميد الله لِما تمتاز به من قوة الأسلوب وجزالة المعنى، ثم شرعت اللجنةُ في تنقيحها مستعينة بالعبارات المُثلى من التراجم الأخرى إضافةً إلى ما رأت هي أنْ تعتمدَه من ألفاظ جديدة في الأماكن التي رأت ضرورةَ تصحيحها، مع عنايتها بتحقيق الملاحظات التي وردت إلى الرئاسة من الهيئات والجامعات والمهتمين بهذا الأمر» (المقدمة، 3-4).

(6) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت. ، مادة (ح م ر).

(7) الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق وتعليق نصر الهوريني، دار الفكر، د. ت.

(8) أنظر بحثا لنا في طريقه إلى النشر عن: «الترجمة بين معنى القول، ومقصد القول، ونية القائل».

(9) أنظر الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ/1995م، والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1408هـ/1988م.

(10) يمكن، على سبيل المثال، النظرُ في الترجمات الفرنسية التي رجعنا إليها، وهي ترجمات قام بها: ريجيس بلاشير، جاك بيرك، دنيز ماسون، كازيميرسكي، محمد حميد الله، حمزة بو بكر، إدارة البحوث العلمية في السعودية، وغيرها.

(11) نذكر في هذا المقام أننا قمنا بترجمة كتاب ومراجعة عدد من ترجمات الكتب للمنظمة العربية للترجمة.

وكان في عقود الترجمة وفي عقود مراجعة الترجمة بندٌ ظل يُتداولُ دون أن يُفطن إلى وجه المفارقة فيه؛ فقد كان من حرص المنظمة على الدقة في الترجمة، وعلى الأمانة في النقل أنها تنص في عقودها على أن الترجمة أو المراجعة، لا تكون إجمالية «وإنما تُعتمَدُ المقارنة الدقيقة مع النص الأصلي على مستوى كل الألفاظ والمعاني، مع التأكد بصورة خاصة من توحيد استعمال المصطلح العربي في كامل النص مقابل المصطلح الأجنبي من دون سقوط لفظ أو معنى». وكنا في جميع العقود التي وقعناها مع المنظمة نشطب هذه العبارة من العقد قبل أن نوقعه، ونعيده إلى المنظمة.

(12) Nettoyage, Rangement, etc.

(13) « Faire la chambre ».

(14) أنظر تفصيل هذه المسألة في مقالتنا: حسن حمزة: «المترجم بين أنظمة اللغة وأعراف المجتمع»، في كتاب قضايا الترجمة وإشكالياتها، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 8، 2004، 65-83.

(15) Hamzé, Hassan : « Dictionnaire et spécificités culturelles dans la traduction français-arabe », in Ilham Slim/Hoteit (éd.) : Le français langue étrangère entre hier et aujourd'hui, Université Islamique du Liban, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Actes du colloque international organisé du 13 au 14 mai 2011, Beyrouth, pp. 4759-.

(16) قال بالصرفة علماءُ من اتجاهات إسلامية مختلفة فيهم المعتزلي والسني والشيعي. (سامي عطا حسن: «الصرفة، دلالتها لدى القائلين بها، وردود المعارضين لها»). أنظر www. saaid. net/book/8/1661. doc

(17) وقال آخرون إن وجهَ إعجازه «ما فيه من الإخبار عن الغُيوب المستقبلية»، و«قال آخرون: ما تضمَّنه من الإخبار عن قصص الأولين»، «وقال آخرون: ما تضمَّنه من الإخبار عن الضمائر». (أنظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، المجلد الرابع، النوع الرابع والستون. نسخة الكترونية).

(18) La traduction du Saint Coran.

(19) La traduction du sens des versets du Saint-Coran.

(20) الجاحظ، أبو عثمان: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، ص 75.